

القول المصيب،
في بيان ما خفي على مدير مجلة الفتح المصرية محب الدين الخطيب.

بسم الله
فهرست رسالة القول المصيب، في بيان ما خفي على مدير جريدة الفتح محب الدين
الخطيب

تمهيدات:

- 1: التمهيد في كون الرؤيا من المبشرات وهي تسر ولا تغر
- 2: التمهيد في كون المخبر بما رآه لا عهدة عليه لا في بساط التبشير ولا في بساط التحذير
- 3: التمهيد في كون المحرف للكلام عن مواضعه باختصاره وحذف ما يتم به من علامة أصحاب الأغراض (ويل للمصلين. الكتاب يقيد بعضه بعضا)
- 4: التمهيد في كون المكفر للمسلمين والطاعن في معتقداتهم يخشى عليه
- 5: التمهيد في كون المحذر من الشيء الذي أدى اجتهاده منه أنه مضر بالدين ليس من شيمة المهتدين، وإن الأولى بالمهتدين أن لا يتسارعوا بالإنكار.

وبعد فإن أخانا في الله ومحبتنا من أجله. حامل راية الإرشاد في الطريقة التجانية. ذات المعارف الربانية. صاحب التأليف العديدة. والآراء السديدة. شبيهة الحمد. أبو علي السيد حسين حسن الخشَّاب¹ ببلد طما من القطر المصري. زاده الله بسطة في العلم والجسم. وأثابه على ما عاناه في هذه الطريقة بما تقر به عينه في الحرب والسلم. قد أطلعني على ما نشرته مجلة الفتح² من الطعن في الطريقة التجانية، وهي إحدى المجلات التي تطبع بمصر القاهرة لمديرها محب الدين الخطيب³.

فإنه عفا الله عنا وعنه بعد أن نشر مقالة للمقدم التجاني، العارف الرباني، مرشد المريدين للحق المبين، الفاتح في وجههم أبواب العلم الصحيح، فحملوا منه ما يشفي القلب الجريح، نفع الله به جل شبيهة قطره بورد عين المعرفة بالله في هذه الطريقة، وأوقفهم فيها على الحقيقة، الشيخ محمد الحافظ التجاني المصري، المؤلف فيها وفي غيرها في الموضوعات العديدة، مؤلفات مفيدة، منها تلك المقالة التي نشرها هذا المدير في مجلته المشار لها تحت عدد 418 من عامها التاسع بالقاهرة، يوم الخميس

¹ - حسين حسن الطماوي، من أعلام الطريقة التجانية بمصر، وهو من تلامذة العلامة سيدي أحمد سكيرج، وقد وقفت على رسائل كثيرة دارت بينهما منها ما يزيد صفحاتها على العشرين صفحة.

² - مجلة الفتح صدر أول عدد منها في يوم 29 ذي القعدة الحرام عام 1344 هـ- 10 يونيو 1926م، وتسلم رئاسة التحرير فيها أولاً الأستاذ عبد الباقي سرور، ثم تولى هذه المسؤولية بعده الأستاذ محب الدين الخطيب، ولا ينكر من قامت به هذه المجلة من مجهودات في سبيل محاربة الغزو الفكري والإستشراق والتصوير، وما إلى ذلك من قضايا التربية والتعليم، غير أنها مالت بعد ذلك إلى التشدد والتكفير، وافتقاد المرونة في التعامل مع بعض المستجدات، وتغلغل فيها التشدد، فأدى إلى ظهور تجاوزات لم يعهدها قراء المجلة من قبل، خصوصاً في بعض المقالات التي أساءت للتصوف من جهة، ولطريقتنا التجانية من جهة أخرى، وغالباً ما كانت هذه المقالات تصدر عن جماعة من المدعين للعلم، ممن لم يبلغوا شأواً في الدين، ولا غرض لهم سوى تجريح الناس وتكفيرهم، دون سند من علم شرعي رصين، أو فقه عميق، بل هو محض الهوى والجهل. وبافتقادها للطريق الصحيح، ومجانبتها لأسس الحق الصريح، وتماديها في إذابة بعض طوائف المسلمين بما فيها الطائفة التجانية، تمَّ إغلاق هذه المجلة عام 1366 هـ- 1948م، فجف مدادها منذ ذلك الحين، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك.

³ - محب الدين بن أبي الفتح بن عبد القادر الخطيب، مفكر سوري، من مواليد دمشق سنة هـ - 1886م، له مؤلفات وأثار كثيرة، عاش فترة طويلة من عمره بمصر، وبها توفي في القاهرة سنة هـ - 1969م، وهو مدير ومؤسس جريدة الفتح، التي امتد إصدارها على مدى ثلاثة وعشرين سنة، كما أسس من قبل مجلة الزهراء، ثم مجلة الأزهر، وكان متعصباً ضد الطريقة التجانية، وقد جمع في هذا الصدد تأليفاً سماه: من الإسلام إلى الإيمان، أملاه بكثير من أفكاره المتطرفة، وترهاته الزائفة البعيدة عن ضوابط الصواب ومناهجه، الشيء الذي يدل على ضيق أفقه، وافتقاده لأساليب الحوار، وتشدده الفظيع. أنظر ترجمته في الأعلام، للزركلي 5: 282.

سادس عشر رجب عام 1353 هـ تحت عنوان براءة من الكفریات الواردة في كتب التجانية، وعلق عليها هذا المدير بما أمضاه باسمه وصدر به أول ورقة من عددها المذكور تحت عنوان: الطريقة التجانية على المشرحة.

وحين مطالعتي لما نشره انقح في باطني أن المدير المذكور خفى عنه أن الطريقة التجانية ليست في صورتها التي نظر إليها بعين السخط التي ترى المحاسن معاًيب، وتلفت الأنظار إلى ما تجلى لها في نظرها من المثالب. ولا تزال غاضة البصر عن غير ما لها تجلى، وعاضة بنواجذها على حبل بغض من ببغض تلك المحاسن تحلى. وهذه عادة الله فيمن لم يقدر لهم انتفاع بما ظهر لهم في ذلك الزم من ميت أو حي.

فللبغض عين لا تزال عبوسة وعين الرضا مكحولة بالتبسم

ثم سنح لي أن أبين ما خفى عن هذا المدير، وأن كلامه مردود عليه عند كل منصف بصير. ولا ينبئك مثل خبير. وما مقصودي إلا نصرة الحق بالقول المصيب، في بيان ما خفى على مدير مجلة الفتح المصرية محب الدين الخطيب.

والحق يظهر من معنى ومن كلم

لدى كل من علم، وحاشا وكلا ومعاذ الله أن تقابله منا بالبذاء ابنة شفه

ومن يعن بالمجد لم ينطق بما سفه ولا يجد عن طريق الجد والكرم

ولعل وعسى إن اطلع على ما نقول أن يعترف بالحق ويبادر بالخروج من التداخل في طرق أهل الله بالفضول، فإن الطريقة التجانية بعد التزام مريديها أداء المفروضات على الوجه الشرعي الأتم مدارها على ورد ووظيفة وذكر جمعة. وما زاد على ذلك فهو فضل أو فضول. فضل لأهل الإعتقاد، وفضول من ذوي الانتقاد. وسأقدم بين يدي البحث فيما علقه على تلك المقالة تمهيدات، وبعد تقريرها نرجع إلى رفع ستار المرسح الذي عرض عليه انتقاداته، ليتحقق من رآها ببهرجتها أنها مجرد خيالات.

ونسأل الله أن يلهمه التوبة النصوح، من العود إلى الخوض في مثل قوله المشروح، كما نسأله جل اسمه أن يلهم إخواننا المسلمين للاشتغال بما يهمهم من صلاح الدنيا والدين، بالتجافي عما يوقع في الفتنة وتكمل به المحنة. فالانتصار للمذاهب وقف بعلماء الإسلام عن الرقى في دنياهم لا على المراتب، وهم بعلمهم عالة على الناس. وليتهم لم يقفوا موقف العجب بما اكتشفه غيرهم أو اخترعه، وما أرى ما قام به المنتقدون للإعتقادات إلا إغراء من ذوي الأغراض على شغل الأفكار، عن التقدم لما

ينفع الناس في هذه الدار وتلك الدار. فليت شعري يحصل الشعور لهؤلاء ليعرضوا عن مثل هذه الأمور في حالتها السراء والضراء.

ولولا أنني مطالب ببيان الحق، وإرشاد إخواني من الخلق، ما تداخلت في هذا الأمر ولا تكلمت بكلمة لا بالنهي ولا بالأمر، ونعوذ بالله من الضلالة بعد الهدى، ومن التضليل والتكفير الموقع في الردى. ويُنحصر القول المصيب في مباحث.

المبحث الأول

في قوله أتاح لنا صديقنا الأستاذ الشيخ محمد الحافظ التجاني¹ فرصة جديدة لتحليل عقائد الطريقة التجانية تحليلاً هادئاً يكون به إن شاء الله فصل الخطاب في هذا الباب، ثم وصفه بأوصاف خلاصة عسى أن يستميله بها للقول بما يقوله أهل الانتقاد، ويريد بذلك انتشاله مما هو مصمم من حسن الاعتقاد، وبعد ذلك قال بأن الأستاذ محمد الحافظ قال فيما نشر له في هذا الجزء من مجلة الفتح: وحيث أن تلك العقائد فإنهم على بصيرة من أمور دينهم من سائر المذاهب الإجهادية.

مقدمة

يعلم كل من طالع كتب الصوفية وكان من أهل العلم الصحيح متسع العارضة في الفنون النقلية والعقلية أن مشربهم رضوان الله عليهم في المعرفة بالله على نسق واحد في عدم تمسكهم بمذهب خاص بين العوام والخواص، وإنما فيما لتمسكهم بها يتجلى لهم من الحقيقة بالحق الذي ربما يخالف نظرية علماء الرسوم، وما تمسكوا به من

¹ - العلامة سيدي محمد الحافظ بن عبد اللطيف بن سالم التجاني، من أعلام الطريقة التجانية بمصر، وهو من مواليد بلدة كفر قورص، مركز أشمون بإقليم المنوفية، وهو شريف حسيني النسب، تمسك بالطريقة التجانية عام 1338 هـ- 1919م، وكان سنه حينذاك 22 عاماً، وله فيها أسانيد كثيرة، من بينها سنده عن مؤلف هذا الكتاب العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج، كما له مؤلفات كثيرة في فنون شتى، وأكثرها في التصوف والطريقة التجانية، منها كتاب رد أكاذيب المفترين على أهل اليقين، وكتاب الانتصاف في رد الإنكار على الطريق، وكتاب أصفى مناهل الصفاء في مشرب خاتم الأولياء، وكتاب فصل المقال فيما يرفع الإذن في الحال، إلى غير ذلك من مؤلفاته الكثيرة.

توفي رحمه الله منتصف ليلة الإثنين 29 جمادى الثانية عام 1398 هـ- 5 يونيو 1978م، وقد رثاه الشيخ محمد متولي السداوي بقصيدة نونية افتتحها بقوله:

وسجلا فيهما النور المبين
إي ولو في الأنبياء المرسلين

كم نرى الأجال تطوى صفحة
ذا قضاء الله في كل السورى

إلى أن ختمها بقوله:

في قلوب الأتقياء العابدين
للصراط المستقيم المستبين
واسألوا عنه الرواة الواقفين
روضة الفردوس بين الخالدين

شيخنا الحافظ حي لم يميت
لم يميت من كان نوراً هاديا
كان في علم الحديث حجة
إنما القبر الذي يحويكمو

اصطلاحات العلوم. وكذلك يبادر القاصرون بالانتقاد على من يصدر من الصوفية من أقوال وأفعال وأحوال، ولربما يحكمون عليهم بوجوب حدهم لخروجهم في نظرهم عن النهج القويم والصراط المستقيم. والحاكمون عليهم بذلك على خطأ عظيم، حيث إنهم لم يحيطوا بالعلم، ومع ذلك فهم على حسب ما يفهمونه موقوفون بيد عاملة على مقتضى البواعث الحاملة لهم على ذلك. والله عليم بذات الصدور.

على أن من حسنت نيته في الصوفية لا زالوا يسمعون ويشاهدون الخلاف الواقع في مشارب الصوفية بينهم حسب أدواقهم في التعبير عما في ضمائرهم، وما انقذ في بواطنهم من الحقائق التي قضى عليهم التجلي القهري بإفشائها وإظهارها في قوالب الألفاظ التي اصطلحوا عليها، وليس لعلماء الرسوم أجنحة يطيرون بها في الأفق الذي طاروا فيه، فيضيق بهم المجال فيتراجعون خلفهم إلى وراء على حسب معلوماتهم، وما قدر لهم من الوقوف على الحياء من الخوض في الطعن فيهم في ذلك، ومنهم من يسلم للصوفية فيما هم فيه غير متجرب على الانتقاد عليهم، خصوصا من ثبتت خصوصيته وظهر فضله، فاعترف له المحققون بالتقدم عليهم في التحقيق والتفوق عليهم فيما رأوه منهم في علو مراتبهم في سلوك الطريق، فعلموا وعملوا، ومن عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم.

وهم في ذلك كله غير مقلدين لأخذ فيما هم فيه على هدى من ربهم، ولم تحصل المضرة إلا لمن لم يكن من حزبهم فأعرض عليهم، فحرم من الدخول في حزرهم، أولئك أصحاب الإنكار ممن تقيد بمذهب ولا يرى الحق إلا معه، أو ارتقى بزعمه إلى مرتبة الإجتهد في أصول الدين وفروعها فخالف غيره من المجتهدين، فجال في فراغ أداه إلى فراغ، ربما جال وحده في ميدانه طلبا للطعن والنزال فيه. وربما وجد من ينتصر له في مجاله، فقالوا إن المجتهدين رجال ونحن رجال، والصوفية كلهم في نظرهم على ضلال، وما زال القوم في واد وهو لاء في واد حتى أفضى كل إلى عمله، وهكذا الشأن في كل عصر، وأهل الله في اطمئنان لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم مع نظرائهم لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك. فتجد الصوفي فيما هو متمسكا به في بعض المسائل متمسكا بحبل مالك وغيره من أهل المذاهب التي هي في الشريعة طرق تهدي للهدى من سلك عليها من الخلق.

وربما تمسك بحبل الأشعري وغيره من أهل المذاهب التي هي في الحقيقة الموصلة للحق. ولو صبر قليلا من يسارع للانكار عليهم في ما هم عليه لشاهدوا الحق حقا في نفس الأمر. ولانشرح صدره بما يصدر عنهم في السر والجهر. لأن عرائس الأسرار لا تتجلى على منصاتهما إلا لأهلها. وإذا كان الصوفي واسع المجال في الإعتقاد فلا ينبغي لمن لم يصل إلى مقامه المبادرة للانتقاد. فإن صاحب الانتقاد لا يحصل على المراد. فقد يظن من يرى حد الشبر فأقل فيما يعرض بين يديه من حال من يرى حد الباع فأكثر فيقول: هذا معتزلي أو شيعي إذا تساهل في نكيره. وقد يتسارع إلى القول بإلحاده فيضلله ويكفره، وذلك مراد الشيطان منه، لأنه تحقق عدوته للمنتقد عليه فلا

ينتفع به لا هو ولا من جرى معه مجراه في القول بإلحاده وتضليله. ولقد قال في العصب اليماني:

يا حاطب الليل ما أراك تسلم إن
عرضت نفسك للويلات في ظلم
أتعبت نفسك فيما رمت تهدمه
سلمت في ليلة من لدغ حيّات
غدوتَ فيها ظلومًا النفس والذات
من صرح حق سما عن الجهالات

المقالة الأولى

لم يكن الذين بادروا بالإنكار على الشيخ التجاني رضي الله عنه بأول من ضلل أهل الله، فإن عادة الله في خلقه أن يبتليهم بمثل مدير هذه المجلة ممن هم أعظم منزلة في العلم، وأقل منه في الإدراك والفهم، فقد وقع النكير الشنيع على أكابر الصحابة من أصحاب الأهواء، فلم يسلم أحد منهم من إذاية المتمسكين بالحجج الواهية في الطعن فيهم، وانتصر لهم من الأحزاب الضالة من يزعمون أنهم يحسنون صنعا، وقامت جماعات ممن يزعمون أنهم على السنة والكتاب في تضليل كل أحد من الأئمة المجتهدين، كل على سبب ما أداه إليه فهمه¹.

وكم من عائب قولا صحيحا وأفته من الفهم السقيم

في قول الشيخ من حلف بالطلاق الخ..

اعلم أن مشهور مذهب الإمام مالك رضي الله عنه أن من حلف بالطلاق على شيء يعتقد أنه كان الأمر المحلوف عليه بخلاف اعتقاده في الواقع فإنه يلزمه الطلاق كما قال في المختصر، ولا لغو على ما يعتقد فظهر نفيه، ولا يمتري ذوي اعتقاد في أهل الله أن قول الشيخ رضي الله عنه من حلف بالطلاق أنه جالس مع المصطفى صلى الله عليه وسلم في الوظيفة فهو بار في يمينه ولا يلزمه طلاق، وذلك قاله حين سأله بعض أهل العلم عن ذلك، فيتنزل على جلوس المصلي مع المصطفى صلى الله

¹ - كان العلامة سيدي أحمد سكيرج شديد التأسف لما آل إليه أمر المسلمين في عصره من تراجع وانحطاط، مع اتساع رقعة الجهل بين كثير ممن يدعون العلم والنباهة والمعرفة، فيتحدثون في مسائل علمية شائكة، ويؤلفون كتبًا وأبحاثًا في قضايا خطيرة، لا ينبغي أن يخوض فيها إلا من وهبه الله علما واسعا وذهنا نيرًا كبيرًا، كما كان يشمئز لما كان عليه علماء ذلك الوقت من قلة الإنصاف، وشدة الإعتساف، وكثرة الإختلاف، مع فهمهم السقيم، وطبعهم الذميم، غير مباليين بما هم متلبسون به من جهل فاضح، وعيب واضح.

قلت ولو تقدم السن بالعلامة سيدي أحمد سكيرج إلى عصرنا الحاضر، لرأى ما هو أعجب من ذلك، إذ ترى المرء يقرأ بعض مختصرات الفقه مع شيء من النحو واللغة، ثم يصبح بعد ذلك مدرسا وخطيبا، وعالما واعظا، ولا يبالي بجهله الذي هو فيه، فيحرم الحلال، ويحلل الحرام، ويخوض في العقائد الصعبة عليه، ويدعي فيها دعاوي باطلة، وهو بعيد عنها بمراحل، لا يشم لها رائحة، ولو باحثته وناظرته لظهر لك من عيوبه ما لا يكاد يُحصر.

عليه وسلم وهو متحقق بحضوره صلى الله عليه وسلم عنده، وقد كان يراه الشيخ رضي الله عنه جالسا عنده في قراءة الوظيفة رؤية لا احتمال معها، فذكر ذلك حسب الواقع عنده، والحالف بالطلاق على ما يعتقد إن ظهر صدقه فلا يلزمه طلاق.

ولقد رأه صلى الله عليه وسلم في الوظيفة جماعة من الإخوان، وبشهادة الله لقد حدثني محبنا المرحوم أبو بكر بن المصطفى بردلة الفاسي أنه رأى يوما في يقظته وهو مع الإخوان يقرأ الوظيفة في الزاوية فرأى النبي صلى الله عليه وسلم مع الشيخ قرب الضريح الشريف، وهو رجل ثقة، ولا يقال أنه رأه في واقعة منامية، ولا يكون ذلك لكل من قرأ الوظيفة، فإن الرجل المذكور رأى ذلك في يقظة مع يقين تام طبق ما أخبرني بذلك.

ولقد حدثني سيدي ومولاي العارف بالله سيدي أحمد العبد لاوي أنه جاءه مرة رجل من الإخوان وهو يرتعد، وأخبره بأنه كان ملازما لقراءة الوظيفة في محل نظيف في دكانه، وكانت حرفته بقالا يبيع الزيت والسمن وغير ذلك على عادة بقاله فاس، فبينما هو في تلاوة الوظيفة إذ رأى المصطفى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة، وقد سمع من سيدنا أبي بكر رضي الله عنه يقول:

يا فلان أما تستحيي أن تأتي بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المحل في قراءة الوظيفة به كل يوم، وقد كانت هذه المشاهدة يقظة. قال وفق ما أخبرني: وذهب إلى محله فلم تمض عليه ثلاثة أيام حتى توفي رحمه الله. قد يقول المنكرون إن هذه الرؤيا ونحوها أضغاث أحلام، ولربما تكون مقولة فلا يعتبر بها، ولا دليل فيها للواقع. فنقول إن سوء الظن يفضي إلى أكثر من هذا¹ وقد قيل:

وإذا لم تر الهلال فسلم
لأناس رأوه بالأبصار

ولعل المنكر إذا آتيناها باستدلالات أرغمت أنوف أهل العادة، ربما سلمها أو زادته تعصبا لما يقول ويطعن في استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسي، فنحيله إلى

¹ - سوء الظن بلاء صعب، لا يستطيع تجنبه سوى من وفقه الله تعالى، فهو يجعل صاحبه ينظر إلى الناس على أنهم سيئون وخبثاء، وأصحاب بدع ومجرمون، وأنهم لا حسنة لهم، ومن أسباب سوء الظن الغرور بالنفس، والتكبر على الناس، وحب اتباع عيوبهم، والحسد والتجسس، وغيرها من الأوصاف المذمومة التي نهى عنها الشرع الحنيف، ولا يتصف بسوء الظن إلا ذوا القلوب المريضة، الذين يريدون التصدر على الناس، ولا يحبون أن يتقدمهم أحد، أو تكون له مكانة ينعم بها عليهم، قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا معشر من آمن بلسانه ولم يفيض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع عورته يفضحه ولو في جوف بيته. إهـ.. ورحم الله الشاعر إذ يقول:

أرى كل إنسان يرى عيب غيره
وما خير من تخفى عليه عيوبه
ويعمى عن العيب الذي هو فيه
ويبدو له العيب الذي لأخيه

مجادلة من يقول في عصرنا هذا بما لا يحصى عددهم، وقد قال بذلك جماعة من علماء الإسلام ممن له معرفة بقواعد هذين الفنين. فإن قال المنكر: المستحضرين للأرواح متفقون على أنه لا قدرة لهم على استحضار أرواح الأنبياء، فنقول خاصة جوهرة الكمال لم يعمل المستحضر بما يحصل عليها، ولذلك يشترط في قراءتها أن تكون بالطهارة المائية الكاملة، ولعل المنكر لا يقول بخواص الأذكار، ونحن نقول بها لما صح من الرقية مثل تعويذ اللذيع المذكورة في البخاري وغيره، وتعويذ الملك النبي صلى الله عليه وسلم من السحر الذي طبه به ابن الأعصم، فللأذكار خواص لا ينكرها إلا جاهل أو متجاهل.

فإن قال المنكر: إن الذي يحضر الأرواح بالاستحضار والتتويم ليست بأرواح من يسميه المستحضر، وإنما تلك جنون تستهزئ بمن يستحضرها، وتلعب بعقل من يرى أفعالها أو تخاطبه، وذلك من قبيل السحر والشعبذة فلا تفقه بذلك، فنقول: جل القائلين بذلك لا يعتقدون وجود الجن إلا ما كان من العارفين بذلك من المسلمين، وهم لا يخفى عنهم عمل الجن وأفعاله.

تنبيه لكل نبيه

لم يكن مدير مجلة الفتح المذكورة بأول من خاض بالنكير على الطريقة التجانية والطعن في مؤسسها رضوان الله عليه وتابعيه، ولا بأول من حذر من الخير وصانعيه، طبق ما انطبع في مخيلتهم من موجب نكيرهم، فسارعوا إلى أهل الطريقة بتضليلهم وتكفيرهم، بل هناك منذ ظهرت الطريقة قوم تعدوا طورهم بانتقادهم على حسب مرادهم، إما حسداً لظهورها على غيرها من الطرق، بانتشار نورها إلى أعلى الأفق، وإما تجاهلاً منهم لغرض من الأغراض، في ذلك الإنتقاد والاعتراض، وإما جهلاً مركباً منهم جهلهم من التحقق بالحق فلم تظهر لهم أوجه الحق الذي استتار، وأصروا على ما اقتضاه الجهل فقالوا وتقولوا في الطريقة وهم ليسوا لها بأهل.

ومن المنكرين مَنْ لما بلغهم عنها من تحققوا بالحق فيها رجعوا للحق وقالوا به، فهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه من نصرته الحق، ليس لهم من غرض في ذلك لهم عرض، ومنهم من أصروا على ما فعلوا أو هم يعلمون، فكان منهم من تصدّى لمسألة من المسائل فيها فكذب وكتب، ومنهم حسب أنه على هدى فيما تصدر له في تعداد جملة من المسائل فيها فغلط أو تعمّد النقص فيما حسب. ومنهم من تتبع العورات في نظره مما اشتمل عليه بعض المؤلفات في هذه الطريقة، فأرعد وأبرق بما لم يقف فيه على الحقيقة، كما هو الواقع في مثل هذه المواقع.

وقد قبيض الله لكل فريق من قام بواجب الدفاع عن هذه الطريق، فكان ممن أنكروا على الشيخ رضي الله عنه قيد حياته جماعة لم يبلغنا عنهم أنهم كتبوا تأليفاً في هذا الموضوع، وإنما قالوا ما قالوا في مجالس خاصة وغاصة بالعامّة، فذهب قولهم

أدراج الرياح، وفي طليعة من ألف في ذلك القرن الميلي المصري¹، فقيض الله له مفتي الحاضرة التونسية العلامة أبا إسحاق الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي، فسّمى رده بمبرد الأسنة، في الرد على من أخرج الشيخ التجاني من دائرة أهل الله والسنة².

ثم قامت ضجة النكير بعد وفاة الشيخ في شنجيط وغيرها مما يقرب من ناحيتها، فقام الشيخ أحمد البكاي³ الكنتي بما لم ينفعه إلا السكوت، حين وجه له العلامة أكنسوس الجواب المسكت⁴، وقام ادبيج الشنقيطي⁵ وغيره بما سقطت قوائمهم فيه حين ردّ عليهم العلامة محمد الصغير بنظمه السارية⁶ وتأليفه الجيش الكفيل⁷. وقام الزياني⁸ بما سولت له نفسه فكتب في ترجمانه وترجمانته⁹ ما ظهر كذبه فيه طبق عادته، فقيض الله له العلامة المذكور فسفه رأيه، وأحبط سعيه، بتتبع مقالاته في الجيش

¹ - علي بن محمد الميلّي الجمالي، نزيل مصر، وهو تونسي من بلدة جمّال، وهي بلدة صغيرة على الساحل التونسي، أما أصل أجداده فمن بلدة ميلة قرب مدينة قسنطينة بالجزائر، له كتاب في الرد على الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه سماه: الصوارم والأسنة، وله أيضا في الموضوع نفسه كتاب آخر سماه: السيوف السمرية لقطع أعناق القائلين بالجهة والجسمية، وله أيضا كتاب: العجالة، وهو تنمة للكتاب السابق، توفي عام 1248 هـ - 1833 م. أنظر ترجمته في تراجم المؤلفين التونسيين، لمحمد محفوظ 4: 428-429 رقم 574.

² - أنظر عن آخره ضمن كتاب تعطير النواحي بترجمة سيدي إبراهيم الرياحي، للعلامة الأديب سيدي عمر الرياحي.

³ - أحمد بن محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي، فقيه أديب صوفي، له دور عسكري وسياسي في تاريخ تامبوكتو وما حولها، كان شديد التعصب لطريقته الكنتية القادرية، وقد أدى به هذا التعصب إلى الإنكار عن طريقتنا وإساءة الأدب مع جماعة من جلة علمائها الكبار، كما وقع على أم رأسه بما جلبه عليه إنكاره وجحوده من ويلات وثبور، توفي عام 1281 هـ، وله رد على الجواب المسكت للعلامة أكنسوس سماه: فتح القدوس في الرد على محمد الكنسوس، يوجد بالخزانة العامة بالرباط (2455 كتابي).

⁴ - الجواب المسكت، في الرد على من تكلم في طريقة الإمام التجاني بلا تثبت، للعلامة سيدي محمد أكنسوس.

⁵ - ادبيج بن عبد الله الكمليلي الشنقيطي، شاعر من أهل شنقيط، مشتغل بالهجاء، قال عنه صاحب كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنجيط: ما بقيت قبيلة إلا هجاها، إلا ما قلّ، واشتهر من ذلك هجوه لقبيلة إدا وعلي، لما بلغه فشو الطريقة التجانية فيهم، فكان يبعث لهم القصائد يهجوهم بها فلا يردون عليه لأن الشيخ محمد الحافظ بن المختار العلوي كان يأمر بذلك.

⁶ - سارية الحق والانتصار، في الذب على أولياء الله الأخيار، للعلامة سيدي محمد الصغير النشيتي الشنقيطي.

⁷ - الجيش الكفيل بأخذ الثار، ممن سل على الشيخ التجاني سيف الإنكار، للعلامة سيدي محمد الصغير النشيتي الشنقيطي.

⁸ - أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزياني مؤرخ وزير كاتب، توفي بفاس عام ، ودفن بها بالزاوية الناصرية.

⁹ - الترجمانة الكبرى، في أخبار هذا العالم برّا وبحرا، لمؤلفها أبي القاسم الزياني نسب فيها للشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، أنه فرّ من الباي من القطر الجزائري، واستوطن المغرب، وادعى المشيخة بالكذب، وأنه مشتغل بفن الكيمياء والتدبير، إلى غير ذلك من اتهاماته الكاذبة التي تدل على جهل المؤلف وغيائه وانحرافه، ويُعده التام عن منهج الحق والصواب، واسترساله في الكذب، وعدم مبالاته بحرمة أسياده من أهل العلم والفضل والشرف الرفيع.

العرمرم¹، فظهر للناس كذبه فيما كتب، وأنه صاحب أهواء، فانفلقت جمانته، ومسخت ترجمانته، ثم قامت وقام بالرد عليهم أيضا أبو العباس العلامة الشنقيطي بتأليفه العضب اليماني²، ثم بعد ذلك ما وقع في زماننا بين الشيخ الكتاني³ والعلامة كنون التجاني⁴ مما أفضى به كل واحد منهم إلى عمله، وآخر المنصفين في الإنكار والرجوع عنه إلى الحق بعدما تجلى له في مظهره عالم الشرفاء وشريف العلماء سلطان المغرب سابقا مولانا عبد الحفيظ بن السلطان المقدس مولانا الحسن، فألف تأليفه كشف القناع⁵، ثم رجع عنه وتفيد بحبل الحب في الطريقة.

¹ - الجيش العرمرم الخماسي، في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، للعلامة المؤرخ سيدي محمد أكنسوس، قال العلامة سكيرج في كتابه جناية المنتسب العاني فيما نسبه بالكذب للشيخ التجاني: وذلك في محور حديثه حول أبي القاسم الزباني: وقد قبض الله له العلامة أكنسوس فسفه رأيه، ونقض ما أبرمه من الأخبار التي اختلقها، ومن راجع كتاب الجيش العرمرم تبين له سقطات الزباني وكذباته، وما لديه من التقوليات مما لا تحصل له ثقة به في جميع ما أخبر به.

² - العضب اليماني في الرد عن الشيخ التجاني للعلامة سيدي أحمد بن محمد بن عبد الله العلوي الشنقيطي.

³ - محمد بن عبد الكبير الكتاني، توفي في سجن أبي الخصيصات بفاس الجديد عام 1327 هـ- 1907م. أنظر ترجمته في الجزء الأول من هذه الرسائل ص 98.

⁴ - إشارة إلى بعض مؤلفات العلامة سيدي محمد بن محمد بن عبد السلام كنون التي ألفها في الرد على العلامة محمد بن عبد الكبير الكتاني، ومن جملتها الدر المنظوم، في نصره القطب المكتوم، والنطق المفهوم، في حل مشكلات الدر المنظوم، وقد أجاد فيهما رحمه الله أيما إجادة، وأظهر فيهما من علو كعبه في التصوف، وقوته في الدفاع عن طريقته ومعتقداته، وإفحام خصومه بما له من رصيد معرفي كبير لا يستهان به.

⁵ - عنوان الكتاب بالكامل هو: كشف القناع عن اعتقاد طوائف الإبتداع، المتقولين الذين حادوا عن منهاج السنة، وأحدثوا اعتقادات لم ترد عن شرح الدين والسنة، طبع بمدينة فاس عام 1327 هـ-1909م، لكن جلالة السلطان المذكور رجع عن هذا الكتاب وتبرأ منه، وتمسك بالطريقة الأحمدية التجانية، وألف في حقها مؤلفات قيمة، منها ما هو مطبوع، كالجامعة العرفانية، في شروط وجل فضائل أهل الطريقة التجانية، ومنها ما هو مخطوط، وهو كثير، ومعظم مؤلفاته في مجال الطريقة التجانية، ومنها ما يقع في ثمانية أجزاء، مما يدل على قوة اعتقاد في الطريقة المذكورة، وتقانيه العظيم في محبة شيخها أبي العباس التجاني رضي الله عنه.

وهنا وهناك ما عمل به كل على شاكلته، ومنهم من إلى الآن يركض، ثم قام من هؤلاء القوم وتفاحش في القول محمد الخضر الشنقيطي¹، فألف بحسب ما اقتضاه هواه تأليفه مشتهى الخارف الجاني²، ويا ما أقبح هذا الاسم حيث قدم مسماه لكل خارف جان يشتهى ما ذكره له فيه، وقد قام بالرد عليه بتأليفه نحر الجزور³، بما أشار له أيضا في كتابه نفثة مصدر⁴، وقام بالرد عليه علامة القطر السنكالي الخليفة سيدي الحاج محمد بن عبد الله الكولخي⁵ بأرجوزته وبشرحه عليها المسماة المرهفات القطع، إلى محمد الخضر أخي التتطع، كما شرحها غيره⁶ بما لو رآه المرودود عليه لغصّ بريقه، ولا زال إلى الآن يستقل الإنكار ثم يجد ويركض ثم يرقد، ويا ليت المنكرين حيث اتفقت أنظارهم على جل ما قاموا للطعن فيه لو اطلعوا على ما ألف من الردود على من ذكر، وقد سبقهم الطاعنون فيما طعنوا فيه في الآن ولم يزيدوا شيئا على ما سبقهم إليه من بعدهم ...

1 - محمد الخضر بن مايابى الشنقيطي، مفتي المالكية بالمدينة المنورة، توفي عام 1355 هـ - 1935م، أنظر ترجمته في الجزء الأول من هذه الرسائل ص 88.

2 - عنوان الكتاب: مشتهى الخارف الجاني، في رد زلقات الشيخ التجاني، يقع في 40 صفحة، عمد فيه مؤلفه إلى الطعن في الطريقة التجانية، فنسبها للبدعة، وذكر أن التجانيين يعتقدون في الأخذ بالنام، وأنهم يزكون أنفسهم، ويدعون الولاية، ويبيحون لأنفسهم المعاصي ويتراخون عن الطاعات، إلى غير ذلك من الاتهامات الزائفة التي نعت بها أهل الطريقة المذكورة، وقد ردّ عليه جماعة من كبار علماء التجانية، ولعل أبرز هذه الردود هو ردّ العلامة سيدي أحمد سكيرج، الذي هو تحت عنوان: السر الرباني، في رد ترهات ابن مايابى العاني، التي تبجح بها في تأليفه مشتهى الخارف الجاني.

3 - المراد به كتاب نحر الجزور، الطاعن في الشيخ التجاني وما نسبه له من كذب وزور، لمؤلفه العلامة السلطان الأسبق المولى عبد الحفيظ، ردّ به على محمد الخضر بن مايابى الشنقيطي، يقع في ثلاث مجلدات، لم يطبع.

4 - نفثة مصدر، هو الآخر من جملة مؤلفات السلطان الأسبق المولى عبد الحفيظ، ألفه في مجال الدفاع عن الطريقة التجانية والرد على بعض مناوئها، وهو في مجلد ضخم، وللمؤلف نفسه كتاب آخر في هذا الصدد سماه: زجر المعتدي على الجناب الأحمدى.

5 - سبق التعريف به في الجزء الأول من هذه الرسائل ص 73

6 - شرحها جماعة من العلماء، من جملتهم أخوه العلامة العارف بالله سيدي إبراهيم انياس، وقد وقفت على شرح دقيق لهذا النظم من تأليف العلامة محمد الأمين بن أحمد العلوي الشنقيطي سماه: الجواب المقنع في شرح المرهفات القطع.